الموصل في كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني
(ت ٦٨٢ هـ /١٢٨٣ م)

هدى ياسين يوسف*

ملخص البحث:

تناول البحث الحديث عن الموصل من خلال كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) لزكريا ابن محمد بن محمـــود القزويني. إذ ذكر العديـــد من المعلومات التاريخية والجغرافية المهمة عنها، لا سيّما وأن القزويني قد زار مدينة الموصل، إذ أشار إلى بناء هـــذه المدينة وشكلها والوضع الذي كانت عليه في حقبته التاريخية ووصف مناخها مع اهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وقد تم عرض المادة التي جاء بها القزويني، ومن ثم مناقشتها، وقد تبيّن لنا من خلال دراسة النـــصوص التي جاء بها القزويني وما جاء به مؤرخين وجغرافيين آخرين بانفراده عنهم بروايات عديدة مع إشارات أخرى مشابهة.

Mosul in the Book of (Athar al Bilad Wa 'Akhbar al Ibad) For AL Qazweeni (d. 1283 /682 A.H.)

Assit. Lect. Huda Yassien Yousif

Abstract:

The research tackled Mosul through Athar al Bilad Wa 'Akhbar al Ibad by Zakariah bin Muhammed bin Mohmoud Al Qazweeni. Al-Qazweeni men tionedmuch important geographical historical information about Mosul for he visited it. He told about its architecture , its climate , its religious sites , and economical social sides besides telling about its people and some of its columns. In this research the subject of the book has been reviewed and compared with a number of historians and geographers like Ibn Hauqel , Al Maqdisi , Yaqout al Hamawi and others. It has been noticed through that comparison that Al Qazweeni was distincctive in telling some narratives. Besides , some of the narratives have been similar to what have been told by the other historians and geographers.

* مدرس مساعد/ مركز دراسات الموصل

أولاً: المقدمــة

تعــد الموصل إحدى الحواضر الاسلامية التي حظيت باهتمــام المــؤرخين والجغــرافيين المسلمين ومنهم زكريــا بن محمد بن محمود القزويني الذي ولد في بلدة قزوين، جنــوب بحــر قزوين من أسرة عربية في سنة ٦٠٠ هــ /١٢٠٣ م وإليها ينسب، وقد رحلَ القزويني في فتــرة شبابهِ إلى العديد من المدن والبلدان في الشام والعراق، مثل دمشق، وواسط، والحلة، التي زارهــا في زمن الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هــ/١٢٤٢-١٢٥٨م)، آخر الخلفــاء العباسيين فــي بغداد. وقــد تولى القزويني منصب القضاء في مدينة الحلة سنة ٦٥٠هــ /١٢٥٢م، ثــم نقل إلى القضاء بمدينــة واســط سنة ٦٥٢ هــ /١٢٥٤ م، كما أضيف إليه التدريــس في أحد المدارس هناك. واستمر في عملهِ هذا إلى أن توفي في سنة ٦٨٢ هــ /١٢٨٣م[١].

ولم يقتصر القزويني في عمله على ممارسة القضاء والتدريس فقط، بل كانت لــه اهتمامــات أخرى في ميداني التاريخ والجغرافيا، وحظي بمكانة بارزة فيهما. وكانت له مؤلفــات فــي هــذا المجال، ولعل من أبرزها كتابه الأول الــذي يحمــل عنــوان (عجائــب المخلوقــات وغرائــب الموجودات)، وكتابه الثاني والذي بعنــوان (آثار البلاد وأخبار العبــاد)، وقد نالَ هذان الكتابــان شهرةً واسعةً، والسبب في ذلك يعود إلى الأسلوب الشيّق والمبــسط الذي اتبعه في هذين الكتابين، فضلاً عن المادة العلمية الشيّقــة التي جاء بهــا، وقد وصفه أحد الباحثين المحدثين[٢] بقوله:"... القزويني الذي يكــاد يكون أكثر الكتّاب العرب قاطبةً قرباً إلى الجماهير، ذلك أن معرفة جمهــرة القرّاء بالآثار الأدبية لم ترتبط بالطبع دائماً بأسماء كبار العلماء، بل كانــت في أغلب الأحيان من نصيب تلك المصنفات المحببــة إلى نفوسهم والتي تتجاوب مع رغباتهم. وإذا كان ياقــوت قــد بلغ الأوج في نمط المعاجم، فإن القزويني يعتبر أكبر كوزموغرافي ومبسط للعلــوم مــن أجــل الجمهور".

والذي يهمنا في هذا البحث هو كتابه الذي يحمل عنوان (آثار البلاد وأخبار العباد)، وتحديداً المادة المتعلقة بالموصل. فقد وصف القزويني في هذا الكتاب المدن في بلاد العرب والفرس والروم وغيرها، كما وصف الجبال والبحيرات والأنهار...الخ، ذلك وفقاً لحروف المعجم. ومما تجدر الإشارة إليه أن القزويني قد ذكر في كتابه الآخر (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) ما يدل على زيارته للموصل وذلك من خلال الإشارة التي أوردها عن ذلك، ففي حديثه عن حيوانات عجيبة الصور. ذكر ما نصه "...ومنها ما حدثني به بعض الفقهاء بالموصل..."[٣].

هذا وقد تميز القزويني في كتابه (آثار البـــلاد وأخبار العبـــاد) بكثرة إيراد القصص العجائبية البعيدة عن الواقع. ولعله أراد من خلال ذكر مثل تلك القصص والروايات التقرب إلى جمهور القــراء. ولا يسعنا في هــذا البحث التطرق إلى المادة الأسطورية التي أوردها القزويني أو مناقشتها، وذلك لأن المادة التاريخية التي جاء بها القزويني عن الموصل كانت مادة علمية تخلو من الروايات الأسطورية،ولعل سبب ذلك يعود إلى كون مدينة الموصل مدينة عريقة ومعروفة للجميع بما فيهم الجغرافيين، فضلاً عن العديد من الرحالة الذين كانوا يزورونها بين آونة وأخرى، والذين كانوا يتعرفون على معالم المدينة التفصيلية ويسجلونها في رحلاتهم أو كتبهم مما لا يدع مجالاً للشك أو الأسطورة. ولكن القزويني كانت له بعض الروايات الأسطورية عن بعض البلدان التابعة للموصل مثل (بلد–برقعيد–الحضر–سنجار) وغيرها. وهذا ما سنتكلم عنه في بحثنا اللاحق بعون الله تعالى.

أما في هذا البحث فسنحاول أن نتعرف على الموصل كما ذكرها القزويني من حيث بنائها ومناخها، وبعض المشاهد الدينية الشهيرة فيهـــا، وكذلك ما ذكره من جوانب عن الحياة الاقتصادية الاجتماعية مثل حديثه عن الطواحين والعربات التي كانت تنصب في نهر دجلة لغرض طحن الحبوب، وبساتين الموصل أو ما يسمى بالشواريق أو السواريق والتي كانت تستخدم لزراعة القثاء والخيار، فضلاً عن ميزات أهل الموصل وبعض أعلامها المشهورين.. وقد تمَّ في هذا البحث مناقشة ودراسة النصوص التي جاءَ بها القزويني عن الموصل وما جاءَ به مؤرخين وجغرافيين آخرين مثل ابن حوقل، وياقوت الحموي، وابن الأثير، وغيرهم لمعرفة ما تميز به القزويني وما انفرد به عنهم.

ثانياً: الموصل بنائها ومناخها

ذكر العديد من المؤرخين والجغرافيين العرب وغيرهم مدينة الموصل ووصفوها من حيث تربتها وهواؤها ومياهها وأبنيتها وطبيعة أهلهـــا. ومنهم القزويني الذي بدأ حديثه عن مدينة الموصل بالإشارة إلى مكانتها التاريخية الكبيرة وسعتها فقـــال:"المدينة العظيمة المشهـــورة التي هي إحدى قواعد بلاد الاسلام رفيعة البناء ووسيعة الرقعة محط رحال الركبان..."[٤]. وقد تشابه ما ذكـــره القزويني مع ما ذكره ياقـــوت الحموي (ت ٦٢٦ هـــ/١٢٢٨ م)[٥] عن الموصل إذ قال:"المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد الإسلام قليلة النظير.. فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان...". ومن المرجح أن القزويني قد أطلع على ما أورده ياقـــوت

الحموي في كتابه (معجم البلـــدان) ونقل ذلك منه وأورده بأسلوبه دون أن يشير إلى ذلـــك. ثم ذكـــر القزويني أن المدينة استحدثها " راوند بن بيوراسف الأزدهاق[٦] " [٧].

وكما هو معلوم فإن مدينة الموصل قديمة جداً، ولا يعرف بالتحديد متى بنيت ولا منّ الذي بناها. فهي قديمة الأسس والبناء إذ يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل الإسلام[٨] إذ كانت في بدايتها حصناً وأطلق عليها الحصن الغربي تمييزاً لها عن الحصن الشرقي نينوى[٩]، والرواية التي ذكـــرها القزويني وردت لدى كل من ابن الفقيه الهمـــذاني[١٠] (ت٣٤٠هـــ/٩٥١م) وياقوت الحموي[١١]، إلاّ أن ذلك لم يرد ذكره في المصادر التاريخية الأخرى مثل البـــلاذري[١٢](ت ٢٧٩ هـــ /٨٩٢ م) والطبري[١٣] (ت ٣١٠ هـــ /٩٢٢ م).

من المعلومات التاريخية المهمة التي زوّدنا بها القزويني عن مدينة الموصل هو مناخها ومواد بناءها، كذلك شكل المدينة في تلـــك الحقبة التاريخية، ونقصد بذلك الحقبة التاريخية التي عاصرها القزويني والتي من المرجح أنه قد أطلع عليها وشاهدها خلال زيارته لها كما أسلفنا، فقال:"...والآن لها ســـور وفصيل وخندق عميق وقهندز[١٤] وحواليها بساتين..."[١٥]. ومما يلاحظ أن سور الموصل بدأ مع نشوء المدينة وقد اهتم الأمويين بهذا السور سواء بتجديد بعض أجزائه أو بترميمه أو زيادة حصونه الدفاعية، وذلك لاعتبارات سياسية وحربية عديدة، لا سيّما أن الخليفة الأموي مروان بن محمد الـــذي عرف باهتمامه بالموصل إذ حظيت بمكانة مميزة في عهده، وحاول أن يجعلها عاصمة للدولة الأموية[١٦]. كما أنه حفر خندقاً حول السور عندما جاء إلى الموصل لملاقاة العباسيين الذين وصلوا إلى الزاب، فترك الموصل واتجه إلى الزاب[١٧]، هذا وقد ذكر الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤ هـــ/١٢١٧م)[١٨] سور المدينة عند زيارته لها، فقال: "...وفي أعلى البلد قلعة عظيمة...ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان، وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله...".

أما فيما يخص مناخ المدينة. فقد ذكر القزويني ما ميّز هذه المدينة، لا سيّما فصولها الأربعة (الشتاء، الربيع، الصيف، الخريف) إذ أشار إلى شدة بردها في الشتاء وشبهها بـــ (الزمهرير)، أما في فصل الربيع فقد أشار إلى طيب هواؤها[١٩]، وهذا ما أكده العديد من الجغرافيين أمثال المقـــدسي[٢٠]، وياقوت الحموي[٢١]. ومما قاله ياقـــوت الحموي عنها:"...وكثيراً ما وجـــدت العلماء يذكرون في كتبهم أن الغريب إذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه فضل وقوة...وما نعلم لذلك سبباً إلاّ صحة هواء الموصل وعذوبة مائها..."، وبالنسبة لفصل الخريف في مدينة الموصل فقد وصفه القزويني بكثرة الحمى وتكون

هذه الحمى سنة سليمة والأخرى موبئة يموت فيها كثير من الناس[٢٢]. ولعــل القزويني كان مبالغاً في وصف فصل الخريف في مدينة الموصل. فالمقدسي[٢٣] مثلاً عندما تحدث عن اقليم الجزيرة قال:"وأصح بلدانــه هواء الموصل...ولا أعرف له مــاء رديا ولا وديــاً وبياً ولا طعاماً لا تجده مرياً". أما في فصل الصيف فقد أشار القزويني إلى شدة حرّها في فصل الصيف وشبهها بـــ (الجحيم) وبيّن السبب في ذلك بقوله:"...فإن المدينة حجرية جصية تؤثر فيها حرارة الصيف"[٢٤]. وقد أكدت المصادر التاريخية[٢٥] أن مدينة الموصل مبنية من الحجارة والجص، حتى أن مدينة الموصل سميت بالبيضاء لأن دورها مبنية بالجص والرخام. إذ كان الرخام أو الجــص من المواد المهمة التي استخدمها الإنسان منذ عصوره الأولى وحتى عهود متأخرة،إذ قلّما نجد طرازاً معمارياً أو فنياً قد خلا منه، هذا ويتصف الرخام الموصلي بالليونة وقابليته للصقل الجيد ومطاوعته للعمل لذلك يعد مادة أساسية في البناء وذلك لمميزاته[٢٦]. ومن المفيد القول أن منطقة الجزيرة عموماً ومنها مدينة الموصل يسودها مناخ قاري تتضارب فيه درجات الحرارة ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً[٢٧].

ثالثاً: الموصل والمشاهد الدينية

ومن الأمور المهمة الأخرى التي أشار إليها القزويني من خلال حديثه عن مدينة الموصل هي أبنيتها وقصورها الحسنة والتي تقع على طرف دجلة، كما أشار إلى بعض مشاهدها الدينية مثل مشهد النبي جرجيس عليه السلام. وكذلك أشار إلى تل التوبة،وهو التل الذي وقف عليه قوم يونس عليه السلام لمّا أنذرهم بالعذاب، وتابوا إلى الله، وكان يقصده المسلمون لزيارته والمبيت به. كما كان يأوي إليه النسّاك والزهّاد، وقد شيّد المسلمون فوق هذا التل مسجد النبي يونس عليه السلام[٢٨]. ومما قاله القزويني عن هذا التل " ... وفي الجانب الشرقي منها [الموصل] تل التوبة، وهو التل الذي اجتمع عليه قوم يونس لما عاينوا العذاب، وتابوا وآمنوا فكشف الله تعالى العذاب، وعلى التل مشهد مقصود يقصدهُ الناس كل ليلة جمعة وينذر له النذور..."[٢٩]. هذا وقد ذكر هذا التل كل من المقدسي[٣٠]، وابن جبير[٣١] وذلك من خلال حديثهم عن مدينة الموصل...ومما قاله الأخير عنه: "...ومما خص به هذه البلدة أن في الشرق منها...تل التوبة، وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب. وبمقربة منــه على قدر الميل أيضاً.. العين المباركة المنسوبة إليه، ويقال أنه أمر قومه بالتطهر فيها وإضمار التوبة، ثم صعدوا على التل داعين ؟...".

رابعاً: بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية

من المعلومات التاريخية الأخرى التي زودنا بها القزويني عن مدينة الموصل هي بساتين الموصل حيث قال:"...وبها بساتين نزهة، وفيها جواســق في غاية الحسن والطيب"[٣٢]، كما ذكر فائدة نهر دجلة بالنسبة لأهل الموصل ومدى انتفاعهم منه من حيث شق القنوات،ونصب النواعير على الماء التي يديرها الماء بنفسه. وكذلك نصب العربات[٣٣] أو الطواحين في نهر دجلة. هذا وقد وصف القزويني كيفية نصب هذه العربات أو الطواحين بقوله:"...ونصب العربات وهي الطواحين التي يديرها الماء في وسط دجلة في سفينة، وتنقل من موضع إلى موضع"[٣٤]. ومما يذكر فإن طواحين الحبوب منتشرة في الجزيرة والموصل وبعض قراها وكانت موجودة في بلد والحديثة وتكريت[٣٥]، وكان هناك مجموعة من هذه الطواحين على نهــر دجلة في مدينة الموصل إذ طلــب الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هــ /٧٢٣-٧٤٢ م) من والي الموصل أن ينصب عشرين رحى إلاّ أن ما نصب منها ثمان عشرة رحى[٣٦]. وقد وصف الجغرافي ابن حوقل[٣٧] هــذه الطواحين أو العروب ومفردها عربة بشئ من التفصيل وكانت معلوماته مشابهة للمعلومات التي جاء بها القزويني، فضلاً عن معلومات أخرى جديدة[٣٨].

ومن المسائل المهمة التي ذكرها القزويني وضع نهر دجلة عند نقص الماء فيه إذ قال:"وفي الجانب الشرقي عند انتقاص الماء يبقى على طرف دجلة ضحضاح على أرض ذات حصباء..."[٣٩]. كما ذكر القزويني جانباً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للناس في مدينة الموصل وذلك عندما أشار إلى ما كان يفعله النــاس في حالة نقــص مياه نهر دجلة، لاسيما الجانب الشرقي منه حيث كانوا يستخدمون تلك الأماكن للنزهة والتمتع بالهواء الطيّب. وكان الناس يتخذون لهم سرراً وقباب من القصب في وسط الماء يطلقون عليها (السواريق) أو (الشواريق) يبيتون فيها في ليالي الصيف،وعندما تنحسر مياه نهر دجلة وتظهر الأرض كانوا يستغلونها في زراعة القثاء (الخيار)، فتكون حول القباب التي أقامها الناس، ويبقى ذلك إلى أول الشتاء[٤٠]. وقد انفرد القزويني عن غيره من الجغرافيين مثل ابن حوقــل، والمقدسي، والبكري، وياقوت الحموي بذكر هذه المعلومات التاريخية المهمة.

خامساً: أهل الموصل وبعض أعلامها

أمتاز أهل الموصل بصفات ومزايا عديدة ميزتهم عن غيرهم من سكان الأقاليم الأخرى، وقد ذكر عدد من المؤرخين والجغرافيين صفــات أهل الموصل وذلــك من خلال حديثهم عن مدينة الموصل مثل: ابن الفقيه الهمذاني[٤١]، المقدسي[٤٢]، وياقوت الحموي[٤٣]،

والرحالة ابن جبير[٤٤] وغيرهـم، وقد مـالَ الأغلبية إلى مدحهم والاشادة بهـم. ومن ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن جبير[٤٥] إذ قـال:"...وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلاّ ذا وجه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم وعندهم اعتـدال في جميع معاملاتهم...". أما القزويني فقد أشادَ بهم بقوله:"...وأهلها أهل الخير والمروءة والطباع اللطيفة في المعاشرة والظرافة، والتدقيق في الصناعات..."[٤٦].

ولم يقتصر القزويني على ذكـر صفات أهل الموصل وإنما ذكر بعض الشخصيات البارزة فيها ومنهم وزير أتابكـة الموصل أبو جعفر محمد بن علي بن أبي المنصور الملقب بجمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني (٥٢١-٥٥٩ هـ /١١٢٧-١١٦٣ م)[٤٧]، ومما قاله عنهُ:"...كان من كرام الدنيا، أصله من أصفهان توزّر من صاحب الموصل..."[٤٨]. وتجدر الملاحظة إلى أن جمال الدين الأصفهاني نشأ في أسرة اشتهرت بالأدب والعلم وتهذب في بلاط السلاطين وهذا مما جعله يبرز في مجال الأدب ويظهر كفاية ومقدرة عالية وشغل بعض المناصب فذاعت شهرته ووصلت إلى عماد الدين زنكي[٤٩]. الذي اصطحبه عندما تولى الموصل فتفتحت أمامه أبواب الشهرة، حيـث ولاهُ عمـاد الدين زنكي عدد من المناطق فأبان كفاية وعفة فكان من خواصهِ وأكبر ندمائهِ.

ومما ميّز هذا الوزير الأتابكي وأعطاهُ شهرة فائقة هي كرمه الكبيـر الذي كان السبب في منحه لقب الجواد[٥٠]، وقد ركزت المصادر التاريخية التي تحدثت عن الجمال الموصلي على وصف هذا الجود والكرم. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عماد الدين الأصفهاني[٥١]. إذ قال: "ولم يقنع بما جـادَ به للوفود، حتى زم إلى البلاد ركائب الجود فجعل لكل بلدة من بلاد الإسلام من مواهبه راتباً، واصبح جوده في الآفاق إلى المقيمين سائراً وللطالبين طالباً ". ووصفه ابن الأثير[٥٢] فقال:"كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاءً وبذلاً للمال رحيماً بالناس متعطفاً عليهم...". وفيما يتعلق بكرم هـذا الوزير فقـد أشار القزويني إلى العناية الخاصة والأموال الطائلة التي أنفقها على الأماكن المقدسـة (مكـة والمدينـة) إذ أشار إلى اللباس الأخضر الذي ألبسه الجمال الأصفهاني للكعبة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك فأذن له.

والأموال الكثيرة التي أنفقهـا عليها، وكذلك أشـار إلى الأموال التي أنفقهـا على أهل مكة وحجاجها لا سيّما الفقراء منهم[٥٣].

وقد أكدت المصادر التاريخية على ما فعله الجمال الموصلي في مكة والمدينة والأموال الطائلة التي أنفقها عليهما وذلك من خلال توفير جميع وسائل الراحة والأمان للناس لا سيّما حجاج بيت الله الحرام. وكذلك مساعدة الفقراء والمحتاجين ومنهم على سبيل المثال ما ذكره ابن الأثير[٥٤] وابن خلكان[٥٥].

هذا وقد شاهد الرحالة ابن جبير الذي زار مكة والمدينة ما فعله الجمال الأصفهاني بالكعبة المشرفة، ومما قاله:"لهُ رحمهُ الله بمكة والمدينة.-شرفهما الله-من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المكية في ذات الله المشيدة ما لـــم يسبقه أحد إليهِ فيما سلف من الزمان، ولا أكابر الخلفاء، فضلاً عن الوزراء...وجدَدَ باب الكعبة المقدسة وغشاهُ فضة مذهبة وهو الذي فيها الآن..."[٥٦].

ومن الأمور الأخرى التي ذكرها القزويني عن الوزير الجمال الموصلي هي معرفته بعلم الكيمياء وأورد رواية تاريخية حول ذلك فقال:"...وكـــان يعطي أكثر من عبر الموصل، فعرف الناس أن عنده علم الكيمياء...وحكي أن رجلاً صوفياً قال له: أنت الجمال الموصلي؟ قال: نعم، قال: اعطني شيئاً! قال له: سل ما شـــئت. فنزع طرطورة وقال: املأ هذا دراهم ! فقال: اتركه عندي وارجع غداً خذهُ ! فتركه عنده، فلمـــا عادَ أعطاه إياهُ مملوءاً من الدراهم، فأخذه وخرج ثم عادَ وقال: مالي إلى هذا حاجة، وإنما أردت أن أجربك هل أنت أهل لهذه الصنعة أم لا، فعرفت أنك أهل، وأنت ما تعرف إلاّ عمل الفضة أريد أن أعلمك عمل الذهـــب أيضاً. فعلّمه وذهـــب"[٥٧] وعنـــد مراجعة عدد من المصادر التاريخية التي تحدثت عن الجمال الموصلي لم نجـــد ما يؤيد هذه الرواية ومن هذه المصادر: العماد الأصفهاني، ابن الأثير، ابن خلكان، وابن جبيـــر. ولعل الكرم الكبير لهذا الوزير وكثرة عطاياه والمبالغ الطائلة من المال التي كان ينفقها في العديد من أعمال الخير كما مرَّ معنا. جعلت الناس تذكر بعض القصص والروايات التي تبيّن مـــدى غنى هذا الرجل وذلك بقدرته على تحويل بعض المعادن إلى ذهب أو فضة.

هذا وقد ذكـــر القزويني وفاة الجمال الموصلي فقال:"...وحكي أنهُ كان بينهُ وبين بعض الأمراء صداقة، فتعاهدوا على أن من مات منهما أولاً فصاحبه يحمله إلى البقيع، فمات الجمال الموصلي أولاً في سنة خمسين وخمسمائة، فاشترى ذلك الأمير جمالاً كثيرة، وعيّن قوماً من الصلحاء وأقواماً من المقرئين، وأموالاً للصدقة عنهُ في كـــل منزل،وقال: الجمال الموصلي لا يبعـــث إلى البقيع إلاّ هكذا ودفنته بالبقيع بهذا الاحترام"[٥٨]. ومن خلال النص اعلاه أشار

القزويني إلى العهد والاتفاق الذي كان بين الجمال الموصلي وأسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧-٥٨٩ هـ/١١٧١-١١٩٣م) على أن من مات منهم قبل صاحبه يحمله إلى المدينة ليدفـن فيها. وقد توفي الجمال الموصلي قبل صاحبه أسد الدين شيركوه فتكفل الأخير بعملية نقل الوزير جمال الدين من مدينة الموصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة حيث طافوا به حول الكعبة ثم صعدوا به إلى جبل عرفات وطافوا به مراراً ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ ودفن بالبقيع بعد أن ادخل المدينة وطيف بهِ حول حجرة الرسول ﷺ مراراً[٥٩].

ومن أعلام الموصل المشهورين الذين تحدث عنهم القزويني أيضاً، العالم الموسوعي الشهير كمال الدين بن يونس بن منعة (ت ٦٣٩ هـ /١٢٤١ م)، والذي كان يعد من أنبغ علماء العرب والمسلمين على مر العصور، وكان متضلعاً بعلوم كثيرة في اللغة والنحو والفلسفة والرياضيات والطب وأنواع الحساب والجبر وغيرها، كما كـان يُضرب به المثل بذكائه وسعـة علومه[٦٠]، وقد وصفه القزويني بقوله:"كان جامعاً لفنون العلوم عديم النظير في زمانه، في أي فن باحثته فكأنه صاحب ذلك الفن من المنقول والمعقول"[٦١]، وقد غطّت شهرة كمال الدين بن منعة في مجال الحساب والجبر على شهرته في بقية المجالات.

وقد ذكرت المصادر التاريخية[٦٢] عدداً من الروايات التي تبيّن كفاءته ومقدرته النادرة على حل بعض المسائل الرياضية والهندسية التي كان يصعـب على معظم رجال أهل العلم حلها في ذلك الزمان حتى أن الوفود كانت تقصده من بلاد الروم والفرنج من أجل حل مسائل معينة في الرياضيات والهندسة. وقد أورد القزويني رواية تاريخية مفصلة ذكر فيها ذلك إذ قال:"...وأما فـن الرياضيات فكان فيه منفرداً، ومن عجيب ما رأيت منه أن الفرنج في زمن الملك الكامل[٦٣] بعثوا إلى الشام مسائل أرادوا جوابها، منها طبيـة، وفيها حكمية، ومنها رياضية. أما الطبية والحكمية فأجاب عنها أهل الشام، والهندسة عجزوا عنها. والملك الكامل أراد أن يبعث جواب الكل، فبعثوا إلى الموصل إلى المفضل ابن عمر الأبهري[٦٤]، أستاذنا، وكان عديم النظير في علم الهندسة، فأشكل الجواب عليه فعرضهُ على الشيخ ابن يونس، فتفكر فيه وأجاب عنه، والمسألة هذه نريد أن نبين قوساً أخرجنا له وتراً، والوتر أخرج من الدائرة عملنا عليهِ مربعاً، تكون مساحة القوس كمساحة المربع، هذه صورتها:

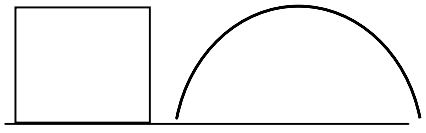

فكتب برهانه المفضل وجعله رسالة بعث بها إلى الشام إلى الملك الكامل،فلما مشيت إلى الشام رأيت فضلاء الشام يتعجبون من تلك الرسالة، ويثنون على استخراج ذلك البرهان، فإنه كان نادر الزمان"[٦٥] وقد انفرد القزويني عن غيره من المؤرخين[٦٦] الذين تحدثوا عن كمال الدين ابن منعة برسم صورة توضيحية للمسألة الرياضية التي طُلـــب من كمال الدين بن منعة إيجاد حل لها.

ومن الشخصيات الموصلية الأخرى التي أشـــار إليها القزويني بشكل مختصر الشيخ الزاهد "فتح الموصلي" (ت ٢٢٠ هـــ/٨٣٥ م) والذي عاش في العصر العباسي الأول، وكان يُعدّ من كبار الزهّاد والصالحين في الموصل، واشتهر الشيخ (فتح الموصلي) بزهده وكثرة ورعه وخوفهُ من الله ﷻ[٦٧]، وقد أورد القزويني نصاً أوضح فيه الورع والخوف الذي كان عليه هذا الشيخ إذ قال:"...كان الغالب عليه الخوف والبكاء، وفي أكثر أوقاته كان باكياً، فلما توفي رئي في المنام، قيل له: ما فعل الله بكَ ؟ قال: أوقفني بين يديه وقال: ما الذي أبكاك ؟ فقلت:يا رب الخجالة من ذنوبي!، فقـــال: وعزتي وجلالي أمرت ملك الذنوب أن لا يكتب عليك أربعين سنة لبكائك من هيبتي"[٦٨]. وقد أوردت المصادر التاريخية التي تحدثت عن الفتح الموصلي، العديـــد من الروايات التاريخية التي تبين الزهـــد والورع الـــذي كان عليه هذا الرجل[٦٩].

الخاتمـة

يُعدّ كتاب القزويني (أثار البلاد وأخبار العباد) من المصادر التي تبحث في الجغرافيا التاريخية وما يتصل بها من وصف لأحوال البلاد وسكانها وذكر تاريخ بناء المدن التي يعرف تاريخ بنائها، وبيان ما وقع فيها من أحداث،وبيّن أن بكل قطعة من الأرض خاصية لا توجد في غيرها إلى غير ذلك من المعلومات المهمة.

وقد تبيّن من خلال هذا البحث أن القزويني زوّدنا بمادة تاريخية وجغرافية مهمة، لا سيما وأنه قد زار الموصل. إذ أشار إلى بناء هـــذه المدينة وشكلها والوضع الذي كانت عليه في حقبته التاريخية ووصف مناخها مع اهتمام بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية فيها. وقد تبيّن من خلال دراسة النصوص التي جاءَ بها القزويني، وما جاء به مؤرخين وجغرافيين آخرين بإنفراده عنهم بروايات عديدة مع اشارات أخرى متشابهة، كما في الرواية التي انفرد بها القزويني بخصوص أهل الموصل وما كانوا يفعلونه عند نقصان المياه في نهر دجلة، إذ كانوا يستخدمون تلك الأماكن للنزهـــة والتمتع بالهواء الطيّب وزراعة القثاء والخيـــار والشواريق، كذلك انفراده برسم توضيحي للمسألة الرياضية التي طُلب من كمال الدين بن يونس حلّها.

هوامش ومصادر البحث:

(١) كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي،الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، حققه وعلّق عليه: مصطفى جواد (بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٥٥)، ص ٤٣٣ ؛ مصطفى الشهابي، الجغرافيون العرب (القاهرة، دار المعارف،١٩٦٢) ص ٨٥ ؛ أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم(القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣) ق ١ /٣٥٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٩ وما بعدها.

(٣) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات،قدّم له وحققه: فاروق سعد، ط ٣، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨)، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٦١.

(٥) معجم البلدان (بيروت، دار احياء التراث العربي، د. ت)، ج ٣ /٢٢٣.

(٦) **راوند بن بيوراسف الأزدهاق:** هو راوند الأكبر بين بيوراسف الضحاك بنى مدينة راوند، وهي مدينة قديمة بالموصل. (المصدر نفسه، ج ٣ /٢٢٣).

(٧) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٠)، ص ٤٦١.

(٨) محمد جاسم المشهداني، الجزيرة الفراتية والموصل دراسة في التاريخ السياسي والاداري (بغداد، دار الرسالة للطباعة، ١٩٧٧)، ص ٩٩.

(٩) عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥) مج ٣ /٥٢٤ ؛ عبد الماجود أحمد السلمان،الموصل في العهدين الراشدي والأموي (ط ١، منشورات مكتبة بسام، ١٩٨٥)، ص ٢٣.

(١٠) أبو بكر أحمد بن ابراهيم، مختصر كتاب البلدان (ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٥ م)، ص ١٢٨.

(١١) معجم البلدان، ج ٥ /٢٢٣.

(١٢) فتوح البلدان،عني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨)، ص ٣٢٧-٣٢٨.

(١٣) محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم (ط ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧)، ص ٣٥-٣٦.

(١٤) **قهندز:** اسم جنس لكل حصن وسط مدينة عظيمة. عماد الدين اسماعيل المعروف بأبو الفدا، تقويم البلدان، تصحيح وطبع: ماك كوكين ديسلان، (باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠)، ص ٤٤٤.

(١٥) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(١٦) أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق:علي حبيبة (القاهرة، دون مكان طبع، ١٩٦٧)، ج ٢ /٦٨، ١٣٣ ؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣ /٢٢٣ ؛ عبد الماجود أحمد السلمان، الموصل في العهدين الراشدي والأموي (ط ١، منشورات مكتبة بسام، ١٩٨٥)، ص ٨٤.

(١٧) الأزدي، المصدر السابق، ص ١٢٦ ؛ السلمان، المرجع السابق، ص ٨٧.

(١٨) أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، (دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، د. ت)، ص ١٦٧-١٦٨.

(١٩) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢١) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٢٢) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٤٢ ؛ وينظر: السلمان، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢٤) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٢٥) الأزدي، المصدر السابق، ص ٣٣٢-٣٣٣ ؛ أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩) ص ١٩٥ ؛ المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ١٤٢؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٢٢٤ ؛ سعيد الديوه جي تاريخ الموصل (بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٢)، ج ١ /٢٣.

(٢٦) أحمد قاسم الجمعة، الزخرفة الرخامية، موسوعة الموصل الحضارية، مج ٣، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص ٣٤٠.

(٢٧) المشهداني، المرجع السابق، ص ٥٤-٥٦.

(٢٨) الديوه جي، المرجع السابق، ج ١ /١٨٢.

(٢٩) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٣٢) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٣٣) **العربات أو العروب:** ومفردها عربة وهي سفينة واسعة تبنى من الخشب والحديد بناءً محكماً، يقاوم تيار الماء ويتحمل شدته وما يكون فيها من الضرائر-أحجار المطاحن-وربما أدخلوا في بناء بعض أقسامها خشب الصاج المستورد من الهند. ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٩٨ ؛ سعد سعيد

الديوه جي وعباس فاضل داؤد، الطواحين المائية في الموصل وما جاورها، (مجلة موصليات، ع ١٥، ٢٠٠٦)، ص ٣١.

(٣٤) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٢.

(٣٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٩٨ ؛ السلمان، المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣٦) الأزدي، المصدر السابق، ص ٣٦ ؛ السلمان، المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

(٣٨) للمزيد ينظر: ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

(٣٩) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٤٦٢ ؛ الديوه جي، المرجع السابق، ج ١ /٤٤٥.

(٤١) المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٤٢) المصدر السابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٤٥) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٤٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦١.

(٤٧) لمعرفة المزيد من التفاصيل ينظر: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار: الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البنداري (بيروت، دار الآفاق الجديدة، د. ت)، ص ١٩٥ ؛ ابن جبير، المصدر السابق، ص ٩٩ ؛ علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة، دار الكتب الحديثة، بغداد، مكتبة المثنى، د. ت)، ص ٨٤-٨٥-٨٦-١٢٧ ؛ أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بيروت، دار صادر، ١٩٦٨) مج ٥ /١٤٣-١٤٤.

(٤٨) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٢.

(٤٩) **عماد الدين زنكي:** وهو أحد أمراء الدولة السلجوقية، تولى حكم الموصل في رمضان سنة (٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) وقتل في سنة (٥٤١ هـ /١١٤٦ م) وهو يحاصر قلعة جعبر. للمزيد ينظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٤ ؛ عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي (موصل، ١٩٨٥)، ص ٢٤.

(٥٠) عماد الدين الأصفهاني، المصدر السابق، ص ١٩٥ ؛ ابن خلكان، المصدر السابق، مج ٥ /١٤٣-١٤٤.

(٥١) المصدر السابق، ص ١٩٥.
(٥٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.
(٥٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٢.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٢٨.
(٥٥) المصدر السابق، مج ٥ /١٤٣-١٤٤.
(٥٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٩٩.
(٥٧) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٢.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٤٦٢.
(٥٩) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٢٧ ؛ ابن جبير، المصدر السابق، ص ٩٩، ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٥ /١٤٥. وينظر: علي سلطان عباس، وزير أتابكة الموصل جمال الدين الأصفهاني (٥٢١-٥٥٩ هـ /١١٢٧-١١٦٣ م)، دراسات موصلية، ع ١١، ٢٠٠٦، ص ٣٣ وما بعدها.
(٦٠) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير اعلام النبلاء، ط ١١، تحقيق: بشار عواد معروف ومحي هلال السرحان،(بيروت، مؤسسة الرسالة،٢٠٠١)، ص ٣٣٧ ؛ سعيد الديوه جي، المرجع السابق، ج ١ /٣٨١.
(٦١) المصدر السابق، ص ٤٦٢.
(٦٢) موفق الدين أبو العباس أحمد المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص ٤١٠ ؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٥ /٣١١-٣١٦ ؛ الذهبي، المصدر السابق، ص ٣٣٧.
(٦٣) **الملك الكامل:** محمد بن أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي، السلطان الملك الكامل ابن العادل. ولد سنة (٧٥٣ هـ /١٣٥٢ م) وهو أكبر أخوته، وكان شجاعاً مهيباً ذكياً فطناً، يحب العلماء وسماع مناظراتهم، أحمد بن ابراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩)، ص ٢٩٩-٣٠٠.
(٦٤) **المفضل بن عمر الأبهري:** هو أثير الدين المفضل بن عمر بن المفصل الأبهري، صاحب التعليقة في الخلاف والزيج والتصانيف المشهورة، كان فاضلاً، جليلاً في العلوم. للمزيد ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، مج ٥، ص ٣١١-٣١٦.
(٦٥) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٣.
(٦٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٤١٠ ؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ص ٣١١-٣١٦ الذهبي، المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٦٧) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، (بيروت، دار الكتاب العلمية، ١٩٩٧)، ص ٣٧٩ ؛ جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي المعروف بابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، (مصر، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣)، ج ٥ /١٢٠ ؛ أحمد اسماعيل عبد الله، الشيخ الزاهد الفتح بن سعيد الكاري الموصلي (ت ٢٢٠هـ /٨٣٥ م) حياته وزهده، أوراق موصلية، ع ٥، ٢٠٠٤.

(٦٨) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٣.

(٦٩) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ص ٣٧٩ ؛ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن الجوزي، صفوة الصفوة، (الموصل، مطبعة دار المعارف العثمانية بالموصل، حيدر آباد الهند، ١٩٦٣) ٤ /١٥٥-١٥٧.